أثر العقيدة الأشعرية في التّوجيه الدّلالي عند البيضاوي من خلال تفسيره "أنوار التّنزيل وأسرار التأويل"

د. هشام رحّال
المركز الجامعي أحمد زبانة، جامعة غليزان

الملخّص: فهم النصّ وسبر معانيه، هي مباحث ترتبط بوعي القدامى بأنّ الفهم مُرتبط بالتأويل والاجتهاد، وبأنّ مَدار كل ذلك إنّما هو اللغة، فهي "المنطلَق في تفكيك معاني الملفوظ والتوصّل إلى المدلول، وهي الوسيلة التي يُحاجج بها المجتهد على فهمه ويَحمل المكلّف على الاقتناع به، وهي المنتهى لأن تشكّل المعنى لا يكون إلا عبر اللغة"[1] فهي نقطة الغوص في أعماق النص باعتماد حركية الذهن باستفراغ الجهد التأويلي فيه، بُغية إقناع المتلقي بالمعاني المتوصّل إليه من خلال تفكيك عناصر النص. غايتنا في هذا المقام ليست تتبّع جهود المفسّرين للقرآن الكريم منذ مراحلها الأولى وعبر أجيال متوالية، وإنّما نسعى إلى إثبات الفكرة القائلة بأن محاولة فهم النص القرآني فهما صحيحا وإدراك مراميه ودفع الشّبهات المثارة من حوله كانت سبيلا إلى التوصّل إلى كثير من الظّواهر الأسلوبية التي عرفتها البلاغة العربية.

الكلمات المفتاحية: الدّلالة، العقيدة، اللغة، القرآن.

Abstract: The understanding of the text and the meaning of its meaning are related to the awareness of the old that understanding is related to interpretation and diligence, and that the course of all this is the language. It is "the starting point in dismantling the meaning of the verb and reaching the meaning. This is the means that the diligent argues for and understands. Which is the end to make sense is only through the language "is the point of diving deep in the text by the movement of mind by emptying the effort of interpretation, in order to convince the recipient of the meanings reached by dismantling the elements of the text. Our approach here is not to follow the

efforts of the interpreters of the Holy Qur'an since its early stages and through successive generations. Rather, we seek to prove the idea that an attempt to understand the Qur'anic text properly and to understand its objectives and to raise the suspicions raised around it was a way to reach many stylistic phenomena that Arab rhetoric.

Keywords: significance, creed, language, Quran.

القرآن الكريم معجزة الرّسول الكبرى، وله فضل في تجميع العرب على لغة واحدة، بما استجمع من المحاسن اللّغوية وما حوى من صور الكمال البياني، فهو الذي فجّر "علوم العربية، ولولاه ما كان للعربية شأن، ولبقيت محصورة في صحراء الجزيرة بعيدا عن حياة الحضارة والمدنيّة، ولبقي أ[2]هلها على حالهم لا يعرفون غير الشّاء والنّعم، فالقرآن أعظم مؤثّر في اللغة، وإليه ترجع نشأة علومها من نحو وصرف ولغة ومعجم وبلاغة وأدب"[3] فلولا القرآن وأسراره البيانية ما اجتمع العرب على لغة واحدة، ولتبدّلت لغاتهم بالاختلاط الذي وقع ولم يكن منه بدّ، ثم كان مصيرها العَفاء والاندثار لا محالة، إذ لا يخلفهم عليها أحد إلاّ من هو أشدّ منهم اختلاطا وأكثر فسادا، وذلك معنى من أبين معاني الإعجاز اللغوي، حيث لا تجده اتّفق في لغة من اللغات غير العربية، وهو لم يتّفق لها إلا بالقرآن.

لألفاظ القرآن جانب كبير في سموّه فوق أنماط التّعبير الأخرى، وتقوم هذه الألفاظ القرآنية على اعتبارات لم تتحقّق لغيرها "فالقرآن يتأنّق في اختيار الألفاظ، ويستخدم كلا حيث يؤدّي معناه بدقّة فائقة تكاد تؤمن معها بأن هذا المكان إنما خلقت له هذه اللفظة دون سواها"[4] لغة القرآن في طابعها الإعجازي جاءت عالية الدّقّة، فلا تستطيع تقديم أو تأخير ألفاظه، وإلاّ اختلّ النّظام المعنوي العام، وهذه ميزة النصّ المعجز؛ وبالرّغم من تعدّد أوجه الإعجاز في القرآن "يظلّ إعجازه البلاغي أو البياني أهم جانب من جوانب إعجازه، لأنّه الواضح بالنّسبة للعرب، ولأنّه هو الذي شدّ به العرب عند أول نزوله فحيّرهم، وهم المدركون لأساليبه العارفون لمناهجه"[5] البيان من القرآن الحجر الأساس من بنائه اللغوي، فبلاغته من هنا منبعها، وذلك ما حيّر العرب كيف لهم لا يستطيعون مجاراته، وتلك إحدى مكامن التّعجيز لهم.

بهذا عكف عليه الدّارسون بالتّنقيب والإحاطة، ما أفرز لنا اتّجاهين متقاربين إلى حدّ التّداخل في بعض الأحيان: اتّجاه يستهدف فقه نصوصه والردّ على الطّاعنين فيها والمعترضين عليها، واتّجاه آخر يسعى إلى اكتشاف خصائصه الأسلوبية التي كانت – وما تزال- أساس التحدي ومناط الإعجاز؛ على ضوء هذا "قام علم البلاغة خدمة لتفسير كتاب الله وبيان إعجازه، فالبلاغة قاعدة التّفسير والإعجاز، وعلم التّفسير هو رأس العلوم ومنه تفرّعت العلوم الإسلامية، ولا عجب إذا وجدنا جمهور البلاغيين هم ممّن يتعاطون التّفسير، لأنّ البلاغة لم تكن علومها لتدوّن وتزدهر لولا التّفسير، فتاريخ البلاغة والتّفسير مرتبطان عضويا لا يمكن أن تنفصل عراه أبدا"[6] الأسس المعرفية لعلم التّفسير ولدت من رحم البلاغة، لأن البلاغيين في تعاطيهم مع هذا النصّ وضعوا ضوابط للولوج إليه، فلمّا قام علم التّفسير وجد بعض الآليات والإجراءات جاهزة، فما عليه إلا أن قام بتثمينها.

يظهر بهذا أنّ البعد البياني الجمالي في النّص القرآني أحد أهمّ أوجهه، فما يهمّنا هنا هو الوقوف على بعض هذه الجماليات التركيبية، مستحضرين معالجات «القاضي البيضاوي» ولا سيما أثناء توقّفه عند المفردة والجملة القرآنية، بآليات يراها الرجل خير ما يتغلغل به في عمق التّركيب القرآني، وذلك لاستجلاء بلاغة هذا النّص والكشف عن خصوصيته ومميزاته وأبعاده الجمالية المتعلقة ببيانه؛ يكون القاضي البيضاوي قد عنى ببعض آيات السّورة الواحدة أو ببعض المفردات والتّراكيب من آية واحدة في لمسات سريعة تكشف عن المراد وتوضّح المطلوب، وهذا ما دفعنا إلى الاستفسار عن فحوى البيان، وماهي الآليات الموظفة لاستجلائه وتحليله ؟.

روافد البيان عند القاضي البيضاوي: يتّسم النّص القرآني بصبغة التّعالي والتّقديس، والأمر هذا راجع لسمو معانيه وبلاغة ألفاظه فوق أنماط التّعبير الأخرى، حيث "تقوم هذه الألفاظ القرآنية على اعتبارات لم تتحقّق لغيرها، لذلك فإنّ النّظر فيها لم يقتصر على جانب واحد، بل يجد الباحث المجال فسيحا أمامه حين يعمد إلى دراسة ألفاظ القرآن"[7] لألفاظ القرآن سمة التعدّد في المعنى، ممّا خلق فيه بعدا فكريا وقرب الفهم.

الحديث عن الفصاحة: طرحت قضيتا الفصاحة والبلاغة في النّص القرآني من باب إعجازيته وبخاصّة حين نزوله زمن كانت قريش تفتخر وتتباهى بفصاحتها، فلو "تأمّلتهم ورأيتهم كأنّما خلقوا خلقًا لغويا وكان القرآن الكريم قد جمع في أسلوبه أرقى ما تحسّ به

الفطرة اللغوية من أوضاع البيان ومذاهب النّفس إليه، فقد أحسّوا بعجزهم عمّا امتنع ممّا قبله، وكان كل امرئ منهم كأنّما يجمل في قرارة نفسه برهان الإعجاز، وإن حمل كلّ إفك وزور على طرف لسانه"[8] اللسان العربي المبين سمة العرب، لكن النصّ القرآني جاء ببيان أبين منها، وهو ما خلق فيهم روح إعجازيته رغم إنكارهم لذلك.

من هذا المنطلق اعتبرت "الفصاحة والبلاغة عاملان من عوامل الإعجاز، وليستا وحدتين فيه: لأنّ المختار أنّ الإعجاز راجع إلى النّظم والتّأليف، والفصاحة والبلاغة من أهمّ سمات النّظم البليغ والتّأليف المحكم"[9] بدأت فكرة النظم منذ أخذ المعتزلة يبحثون في إعجاز القرآن الكريم، فقد ذهب بعضهم إلى أن القرآن الكريم معجز بنظمه العجيب، وكان ابن المقفع (ت142ه) قد أشار إلى نظم الكلام وأنّ النّاظم "كصاحب الفصوص وجد ياقوتا وزبرجدًا ومرجانا فنظمه قلائد وسموطا وأكاليل ووضع كل فص موضعه وجمع إلى كل لون شبهة مما يزيد بذلك صائغا رقيقا"[10] فتشبيه النّاظم بالسبّاك الذي يجمع اللؤلؤ بعضه إلى بعض، ويخلق منه سلاسل وقلائد مُرصّعة ذات بهاء ورونق، كذلك النّص القرآني الذي سمته التّناسق والتّأليف المحكم داخل تراكيبه. وهذا الجاحظ (ت255ه) كذلك يتحدث عن النظم ويذهب إلى القول أن الكتاب "المنزّل الذي يدلّنا على أنّه صِدق، نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد"[11] وهي قضية إعجازية طُرحت بين ثناياه عند البلاغيين على اختلاف مشاربهم العلمية وخلفياتهم العَقائدية التي كانت المنطلق.

أطال علماء الإعجاز في الحديث عن هذه المسألة منهم الباقلاني (ت403ه) الذي يقول: "أنّه بديع النّظم، عجيب التّأليف، متناه في البلاغة إلى الحدّ الذي يُعلم عجز الخلق عنه"[12] إعجازية القرآن كما يرى آتية من خصوصية تأليفه القائم على إحكام معانيه المتأتّية من تناسق ألفاظه؛ وكان القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت415ه) أكثر وضوحا حينما رأى "أنّ الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنّما تظهر في الكلام بالضمّ، على طريقة مخصوصة ولابدّ مع الضمّ من أن يكون لكلّ كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصّفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضمّ، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع"[13] فصاحة القرآن في نظره آتية من اجتماع ألفاظه في تركيبه اللغوي المتّسم بخصوصية، وليس في حال إفرادها، وهذا باعتباره كلام الذات الإلهية المتّسمة بالإطلاق.

وتلقف عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) ما كان من مسائل النّظم وخطا خطوة واسعة ووضع أصول نظرية النظم، إذ جاء "محاولا تخليص علم البيان –الذي هو الوسيلة إلى إدراك الإعجاز في القرآن الكريم- مما رآه قد لحقه من الضّيم وما أصابه من الانحراف في الفهم ومحاولا مقاومة ذلك التيار اللفظي الذي رآه خطرا على فهم قضية هذا الإعجاز"[14] والتيار المقصود هنا هم من ناصر اللفظ وأعطاه المزية على حساب المعنى، حيث حاولوا قصر الإعجاز على اللفظ وحده، لهذا ركّز الجرجاني على تبيان أنّ "جوهر الكلام هو ذلك الكلام النّفسي وأما الكلام اللفظي فهو ظل لهذا الكلام النّفسي"[15] وللأمر علاقة بقضية كلام الذات الإلهية حيث تنازعا عليه قطبا الدّراسات البلاغية المعتزلة التي قالت بأنّه مخلوق، والأشاعرة التي قالت بالكلام النّفسي. أما حديثه عن النّظم فيقول فيه: "واعلم أن ليس النّظم إلا أن تضع كلامك الوضعَ الذي يقتضيه على النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مَناهجه التي نُهِجَت فلا تَزيغ عنها، وتَحفظ الرسومَ التي رُسمت لك، فلا تُخِلُّ بشيء منها"[16] فالنّظم عند عبد القاهر هو تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب بعض، وهو حكم من النحو نتوخاه، أي أنه معاني النحو.

وهذا الزّمخشري (ت538هـ) الذي جاء تفسيره (الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل) عالي الدّقة في طرحه للمسائل المتعلّقة ببلاغة النّص القرآني وإعجازه، فهو طبّق نظرية النّظم في تفسيره، حيث كان يقف على "مظان الإعجاز فيما ينكشف له من روائع البيان، وعجيب النّظم في تقديم كل كلمة على كلمة، أو اختيار كلمة بدل كلمة، أو حرف مكان حرف، إلى غير ذلك مما تثقل به موازين الكلام في مجال البلاغة والبيان"[17] والأمر راجع إلى توجّه الزّمخشري الذي رأى أنّ إعجازية القرآن آتية من نظمه البديع وليس من الصّرفة التي قال بها المعتزلة.

يحتفي القاضي البيضاوي في تفسيره «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» باللّفظ الفصيح والبليغ في ثنايا تفسيره معرّجا عليه حين يصطدم بالألفاظ التي تستدعي التّنويه إلى فصاحتها وبلاغتها، فالقول البليغ في الأصل عنده "هو الذي يطابق مدلوله المقصود به"[18] فبين ما يَقصده اللفظ والمعنى تساند عميق خدمة للفهم والإفهام، ويأتي النّظم عند البيضاوي بين ثنايا البلاغة والفصاحة حين نجده يدلّل ذلك في تفسيره لقوله تعالى:﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[19] بقوله: "من تناقض المعنى وتفاوت

النّظم ﴾[20] فالتّناقض المقصود هنا الاختلال بين اللفظ والمعنى الذي إن حصل فوّت جمالية النّظم الآتية من المعاني النّحوية الكامنة فيه؛ وفي قوله تعالى:﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾[21] يقدّم قراءة بين يدي الآية أنّه: "أنزله بعلمه.. وهو العلم بتأليفه على نظم يعجز عنه كل بليغ"[22] فالنّظم الحاصل داخل نظام الآية مردّه إلى التّأليف والجمع بين الألفاظ والمعاني على نسق يعجز عنه مُعارضوه.

أمّا في قوله تعالى في سورة يونس:﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[23] يقول فيها: "قل فأتوا بسورة مثله في البلاغة وحسن النّظم وقوة المعنى على وجه الافتراء فإنكم مثلي في العربية والفصاحة وأشد تمرنا في النظم والعبارة"[24] فحاصل بلاغة الآية آتٍ من متانة معناها المؤدّي لجمالية النّظم، بالرّغم من قمّة فصاحتهم إلاّ أنّه أعجزهم؛ في خضمّ هذا يظهر أنّ الرّجل يحتفي بالنّظم على مستوى التّركيب القرآني، أيّ التّأليف بين الآيات القرآنية ومفرداتها نحويا، محققة إعجازا ذُهل كل من سمعه وأدرك قيمته الإعجازية، والقائلون بإعجازية القرآن آتية من بديع نظمه فئة من العلماء الذي عارضوا فكرة الصّرفة "أي صَرْف الهمم عن المعارضة، وإن كانت مقدورا عليها غير معجوز عنها، إلا أنّ العائق من حيث كان أمرًا خارجا عن مجرى العادات- صار كسائر المعجزات"[25] وهي التي قال بها النّظام المعتزلي بأنّ الكفار بحكم سليقتهم العربية القائمة فيهم كفيلة لهم بمعارضة القرآن.

فكر الأشاعرة: يحتل التّفكير العقلي الأشعري المنظم لدى البيضاوي قدم السّبق في تعاملاته اللغوية خاصة ما تعلّق منها بالنّص القرآني، وهو ما يجعله في يقظة وحضور فكري خاصّة عند تعامله مع الآيات البلاغية التي تتطلّب إعمالا لأدوات وإجراءات تحقّق له التّحليل البياني لهذه الآيات. على سبيل المثال لا الحصر في تفسيره قوله تعالى:﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[26] يقول: "ظهر أنه معجز والتّصديق به واجب فآمنوا به واتّقوا العذاب المعدّ لمن كذب فعبّر عن الإتيان المكيّف بالفعل الذي يعمّ الإتيان وغيره إيجازًا، ونزل لازم الجزاء منزلته على سبيل الكناية تقريرا للمكنّى عنه وتهويلا لشأن العناد، وتصريحا بالوعيد مع الإيجاز، وصدر الشرطية بإنّ التي للشكّ والحال يقتضي إذا الذي للوجوب، فإن القائل سبحانه وتعالى لم يكن شاكا في عجزهم ولذلك نفى إتيانهم معترضا بين الشّرط والجزاء تهكّما بهم وخطابا معم على حساب ظنهم،

فإن العجز قبل التّأمل لم يكن محقّقا عندهم"[27] نلاحظ أنّ تحليل البيضاوي لمعنى الآية فيه عمق، ومردّ ذلك آتٍ التمكّن من الفكر الأشعري الذي فيه للرّجل باع واسع تدلّ عليه تقديماته المختلفة لقراءات بين يدي النصّ القرآني، ثم تخريجاته الأصولية في كتابه "منهاج الوصول في علم الأصول".

حين وصوله في تفسيره لقوله تعالى:﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[28] يقدّم البيضاوي تخريجًا يروم من خلاله الوقوف على جدلية الرّؤية، التي طال الجدال فيها بين أقطاب المعتزلة وخلفهم الأشاعرة بقوله:"لا تدركه أي لا تحيط به الأبصار جمع بصر وهي حاسّة النّظر وقد يقال للعين من حيث إنّها محلّها واستدلّ به المعتزلة على امتناع الرّؤية وهو ضعيف، إذ ليس الإدراك مطلق الرّؤية ولا النّفي في الآية عامّا في الأوقات فلعله مخصوص ببعض الحالات ولا في الأشخاص، فإنّه في قوة قولنا لا كلّ بصر يدركه مع أنّ النّفي لا يوجب الامتناع. وهو يدرك الأبصار يحيط علمه بها، وهو اللّطيف الخبير فيدرك ما لا تدركه الأبصار كالأبصار، ويجوز أن يكون من باب اللّف أي لا تدركه الأبصار لأنّه اللّطيف وهو يدرك الأبصار لأنّه الخبير، فيكون اللطيف مستعارا من مقابل الكثيف لما لا يدرك بالحاسة ولا ينطبع فيها"[29] فالعجز عن الإدراك إدراك، هذا في الحياة الدّنيوية، إلا أنّ الجدل كان حول الرّؤية في الآخرة حيث قدّمت كل فرقة تخريجاتها لإقناع الآخر بها، فالأشاعرة أثبتت الرّؤية، بينما أنكرتها المعتزلة، وكلّ هذا بالاعتماد على آلية البيان المتمثّلة في الاستعارة وما قدّمته من لطيف المعنى، وهذا لتمرير تخريج تأويلي مردّه "الاختلاف في فهم النّص إلى الحاجة إلى تأويله، وجاء هذا الاختلاف من طبيعة اللغة نفسها من خلال الصّيغ الكلّية المرنة ... مع اعتبار الاختلاف في قدراتهم وحظوظهم من فهم اللغة التي ورد بها النّص، فوقع الخلاف في فهم تلك النّصوص، أضف إلى ذلك اختلاف طرقهم في الجمع بين النّصوص والتّرجيح بينها، وبخاصّة في النّصوص التي بَدت في ظاهرها متعارضةً، وكل منهم يحاول دَرْء التّعارض بحسب ما يقع عليه نَظره"[30] والفهم بحسب التّكوين المعرفي، والمرجعية العقائدية، إضافة إلى حسّ لغوي يتمتّع به كلّ من رام المعنى ومزاوجا بين ثنائيتي النّقل والعقل. إذًا اتّضح لنا كيف أنّ القاضي البيضاوي يوغل آلية التّفكير العقلي التي ورثها عن سلفه الأشاعرة متدرّجا دلاليا من حيث قطبي الفهم اللفظ والمعنى للوصول إلى الاستدلال الذي يروم الوصول إليه إقناعا لآخر برؤيته اللغوية .

صلة النحو بالبلاغة: تحضر التّخريجات النّحوية عند القاضي البيضاوي أثناء ممارسته عمله البلاغي مع بعض الآيات التي فيها مملس بلاغي، وهذا بغية منه إلى تفنيد رؤيته البلاغية وتقديمها في أحسن قراءة يراها هو مناسبة، لأنّ عمل المفسّر يتطلّب منه حضور بديهته في كل التّراكيب القرآنية ذات العمق في الدّلالة على المعاني وهذه خاصية يتمتع بها النّص القرآني. في تفسيره لقوله تعالى:﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾[31] يقول:"ذلكم الخطاب فيه مع الكفرة على طريقة الالتفات ومحله الرفع أيّ: الأمر ذلكم أو ذلكم واقع أو نصب بفعل دل عليه"[32] لأنّ الكافرين ذكروا بلفظ الغيبة في قوله بأنهم شاقوا الله، وما زاد التّخريج إيضاحًا هو المعنى الإعرابي القائم بين الرّفع والنّصب والرّفع أولى عنده، أمّا الالتفات فهو من الأساليب العريقة عند العرب وفي اللغة العربية و"تلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرّفهم فيه، ولأنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السّامع وإيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختصّ مواقعه بفوائد"[33] يجمع البيضاوي في تحليله للآية بين التّخريج النّحوي والبلاغي في استدرار المعنى وإيقاظ الفهم الكامن في بنية التّراكيب داخل المستوى الأفقي، فقد نبّه إلى الالتفات على أنّه وجه بلاغي ثم بعد ذلك دعّمه بالمستوى النّحوي الدّلالي، وهذا ديدنه في الغالب الأعم في تعامله مع الآيات القرآنية، وإذا كان النّحو متمثّلا في الإعراب "ضرورة لفهم النّص فإنّ طلب الدّليل على المذهب العَقَدي بالإعراب أشدّ ضرورة، لأنّ الإعراب من الأدوات التي تَلْزَمُ المفسّر والمتأوّل التي لا يستغني عنها ولا يمكن قيام التّفسير والتّأويل بدونها"[34] حيث يعمل النّحو لدى المفسّر/المؤوّل كآلية لتمرير فهمه عبر عملية الإعراب المتغيّر بحسب الرّؤية اللغوية لكل مفسّر؛ ولعل حضور الجانب البلاغي في تحليلات المعنى عند البيضاوي يظهر قويا في الآيات القرآنية ذات الملمس التأويلي، وهو ملمح يظهر جليا في تفسيره لقوله تعالى:﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾[35] يقول: "أي فقل لهم إني قريب، وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم وإطّلاعه على أحوالهم بحال من قرب مكانه منهم"[36] فقوله تمثيل أيّ تدليل على قربه بالكمال المتّصفة به الذّات الإلهية المطلقة، لأنّه "لما تعذّر القرب المكاني في حقّه تعالى علمنا أنّ القرب هاهنا مستعمل في الحال الشبيهة بحال من قرب مكانه إلى مكان القوم من العلم بأحوالهم وأفعالهم والاستماع لأقوالهم فيكون لفظ قريب استعارة تبعية تمثيلية"[37] نفي الجسمية عن الذّات الإلهية متعلّق بنفي المكان، وهو ما قدّم الآية بروح استعارية مكّنت للمعنى بتقريبه لذهن السّامع والمتلقّي.

وفي قوله تعالى:﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾[38] يفسرها بطرح التساؤل نفسه:"هل ينظرون استفهام في معنى النفي ولذلك جاء بعده إلا أن يأتيهم الله أي يأتيهم أمره أو بأسه كقوله تعالى"أو يأتي أمر ربك "فجاءها بأسنا "أو يأتيهم الله ببأسه فحذف المأتي به للدّلالة عليه بقوله تعالى"إن الله عزيز حكيم"[39] والحذف آلية بلاغية متعارف عليها في البيئة البلاغية "سمّاه أبو عبيدة "مجاز المختصر"، وسماه الجاحظ "الإيجاز المحذوف"، وسماه "الكلام المحذوف"، وهو ما يكون بحذف كلمة أو جملة أو أكثر مع قرينة تعين المحذوف، أو هو كما قال ابن الأثير :"أما الإيجاز بالحذف فإنه عجيب الأمر أشبه بالسّحر، وذاك أنّك ترى فيه ترك الذّكر أفصح من الذّكر، والصّمت عن الإفادة أزيد للإفادة وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ ما تكون مبيّنا إذا لم تبيّن...والأصل في المحذوفات جميعا على اختلاف ضروبها أن يكون في الكلام ما يدلّ على المحذوف، فإن لم يكن هناك دليل على المحذوف فإنه لغو من الحديث لا يجوز بوجه ولا سبب"[40] لذلك قدّم البيضاوي رؤيته البلاغية في الآية السّالفة الذّكر لتبرير تخريجه التّأويلي لكلمة "يأتيهم" التي لم يستسغها معتقده الأشعري الذي يرى بوجوب تأويل الآيات المتعلّقة بالأسماء والصّفات وعدم تحميلها على قراءتها السّطحية بآليات، ذلك أنّ "التّركيب اللغوي يَستغلق أحيانًا ويستعصي على الأفهام، فيفتح الباب واسعا أمام التّأويل ومحاولة إعادة ترتيب المعنى بأدوات من داخل التّركيب نفسه، أو بضَمائِم أخرى من خارج التّركيب كأدلة التَّناص التي عَمد إليها المعتزلة والأشاعرة كلّما واجهتهم نصوص وَجَدوها مُفضية إلى التّعارض بين بعضها البعض أو هكذا بَدَت لهم"[41] والأمر راجع كلّه إلى رغبة المفسّر/المؤوّل في فتح هذه الممرّات من أجل إخراج المعنى الذي يصبو إليه من وراء قراءته.

مظاهر بلاغة المجاز عند القاضي البيضاوي: ضمّن البيضاوي بين ثنايا تفسيره رأيه حول كثير من القضايا التي تتعلق ببلاغة المجاز بما تيسّر له من نظر صائب واجتهاد سليم، حيث جاءت متفاوتة من خلال تحليلاته لكثير من الآيات التي تحمل في فحواها ملمس بلاغي؛ وقد ضمّ البيضاوي بين ثنايا تفسيره تحليلات وتوجيهات لكثير من التّقسيمات البلاغية المتعلّقة خاصّة بعلم البيان باعتبار أنّ هناك إشارات كثيرة في القرآن الكريم إلى البيان منها قوله تعالى:﴿ هذا هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾[42] وقوله أيضا:﴿الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآَنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[43] في الآيتان ورود لكلمة البيان التي في فحواها التّوضيح والتّبيان، "والبيان المقصود هنا هو التّعبير عمّا

في الضّمير وإفهام الغير لما أدركه لتلقّي الوحي وتعرف الحقّ وتعلّم الشّرع"[44] وقول البيضاوي هنا ينمّ عن فهم عميق لفحوى البيان البلاغي وهو لا يخرج عما تعارف عليه البلاغيون أمثال الجاحظ الذي يرى في البيان أنّه: "اسم جامع لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضّمير حتى يفضي السّامع إلى حقيقته....لأنّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسّامع إنما هو الفهم والإفهام فبأيّ شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[45] يتّسع مصطلح البيان عند الجاحظ ليشمل كل ما من شأنه المساهمة في إيضاح المعنى وتقديمه للسّامع في صورة مفهومة جعلته يقُرّ أنّ ذلك هو البيان.

المجـاز: ارتبط المجاز بقضية متعلّقة بفهم النص المقدّس ‹القرآن الكريم›، ذلك أنّ قراءة القرآن تَنشُدُ الفهم عن الله وتتوخّى استخلاص أصول الأدلة وكلّياتها، مما قادها إلى فعل معرفي اتّسم بالتأويل، حيث ارتبطت قضية المجاز "بمسألة التّأويل ارتباطًا وثيقًا، إذ يعدّ الفهم المجازي أهم آليات التّأويل، وآكد أدواته، لأنّ المعنى المجازي هو بحث في دلالة الألفاظ والتّراكيب، توصلاً ونفاذًا إلى معانيها المستكنّة، ولذا عني العلماء المسلمون بما يضيفه المجاز إلى الدلالة اللغوية وينقله منها وإليها"[46] هذا الفهم المجازي الذي يَنشُدُ المعنى من خلال الدلالة اللغوية المُنعقِدة من ثنائية اللفظ والمعنى، يَجعل منه التأويل آلية لابدّ منها تحقيقًا للمعنى وإثباتًا له، لذلك قام البيضاوي بتخريج الألفاظ العربية على معتقده الأشعري؟

لهذا فلورود المجاز في لغة العرب وفي فكر علماء التراث القدامى اتّصال بقضية الظاهر والمؤوّل التي طُرحت بين دفّات الفكر الأصولي، وبالأخصّ التفسير حين استعملها المفسّرون خدمةً لأغراضهم العقائدية ذلك أن "المجاز حمّال وجوه وتأويلات، وهو مظهر من مظاهر الاتساع والاشتباه في اللّسان العربي"[47] لأنّه يَمنح مُتعامل اللغة خيارات يُدخل فيها جُهده وفهمه للمعاني وهذا خدمةً لتوجّهه العقائدي كما هو الشّأن مع البيضاوي الأشعري الذي يرى أنه "وارد في القرآن والحديث شريطة القرينة"[48] وهذا إثباتًا له لأن هناك من نفاه في اللغة وأثبته في القرآن، تحقيقًا لغاية متعلّقة بتأويل الآيات والصفات؛ وشرط القرينة سواء كانت حالية أو مقامية.

إذا فللمجاز منزلة رفيعة في اللغة، حيث جماليته وما تضفيه على متلقّيه حيث سعة المعنى، والمجاز "اسم للمكان الذي يجاز فيه كالمعاج والمزار وأشباههما، وحقيقته هي الانتقال من مكان إلى آخر، وأخذ هذا المعنى واستعمل للدّلالة على نقل الألفاظ من معنى إلى آخر"[49] الانتقال بين المعاني هي من سياق إلى آخر هي سمة المجاز، هذه الخاصّية جاءت من المصطلح، حيث "تحدّث البلاغيون والنّقاد عن هذا الفنّ في كتبهم وسمّى أبو عبيدة أحد كتبه "مجاز القرآن"، وعالج فيه كيفية التّوصل إلى فهم المعاني القرآنية باحتذاء أساليب العرب في كلامهم وسننهم في وسائل الإبانة عن المعاني، ولم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة وإنما عني بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية"[50] لكن الأمر تطوّر بتطوّر الفكر البلاغي الذي ما فتئ يتحدّث عن المجاز من باب التّوسعة في المعنى وليس الإبانة عنه.

ولعل مرادنا من عرض هذا التّعريف المقتضب هو تبين حقيقة تعامل البيضاوي مع المجاز في الآيات القرآنية، متسائلين عن طريقة تعامله مع آيات متشابه القرآن ، أو ما عرف بتأويل الآيات التي تتحدّث عن صفات الباري عز وجل وإعطاءها قراءة تأويلية أشعرية تتناسب ومعتقده الفكري العقائدي، أم تعامل معه وفق ما تعامل معه أبو عبيدة؟. جاء في أنوار التنزيل في تفسيره لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[51] يقول فيها: "شاق عليكم مكروه طبعا...أو بمعنى الإكراه على المجاز كأنهم أكرهوا عليه لشدته وعظم مشقته كقوله تعالى:"حملته أمه كرها ووضعته كرها""[52]والمعنى الحاضر هنا متعلّق بمجاز الآية من ناحية ما تعبّر عنه الآية وما يُفهم، وهذا توسيعا لدائرة التّفسير بموازاة ما غمض عن الأفهام.

في تفسيره لقوله تعالى:﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[53] يُخرجها تأويليا على نحو مجازي "لأن التأويل يرتكز على المجاز...ولأن المجاز ارتحال من دلالة إلى أخرى"[54] الموالي: "أي هو ممسك يقتر بالرزق وغلّ اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود، ولا قصد فيه إلى إثبات يد وغل وبسط ولذلك يستعمل حيث لا يتصور... ونظيره من المجازات المركبة: شابت لمة الليل"[55] يحضر المجاز كمُسوّغ لغوي غايته تقديم تعدّد دلالي عن طريق اتّسامه بالاتّساع المعنوي، مما منح البيضاوي هذا السهولة في تخريجه، عن طريق الاستعارة، ومعناها "أنّ اليهود أخرجوا هذا القول مخرج الإستبخال لله تعالى فكذبهم قوله تعالى "بل يداه

مبسوطتان"، وليس المراد بذكر اليدين هاهنا الاثنتين اللتين هما أكثر من الواحدة، إنما يريد به الجارحتين وإنما النعمة في نفي القوة على ذلك الأمر"[56] سار البيضاوي في تأويليه هذا مسار مُخالفيه المعتزلة التي أولت للتنزيه المطلق، إذ وصل الأمر بها إلى تعطيل صفات الباري تعالى وهو ما عمل على إثباته الأشعري ومن أتى بعده ما سُمّيوا بالمتقدّمين من الأشاعرة، أما المتأخرين منهم فقد انحرفوا عن ما سار عليه سلفهم والسبب يعود إلى اختلاط العلوم العقلية متمثلة في الفلسفة فأوغلوا فيها إضافة إلى ردودهم على الملل المنحرفة ما استدعى التسلّح بها ما أدى بهم إلى عدم تمكنهم من التخلّص منها في تفسيراتهم.

ورد في النّص القرآني آيات متعلّقة بالجماد، ظاهرها يدلّ على إمكانية القيام بأمور لهذا الجماد، إلاّ أنّ الأصل غير ذلك، مثلا في قوله تعالى:﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾[57] يقول فيها البيضاوي: "يداني أن يسقط فاستعيرت الإرادة للمشارفة كما استعير لها الهم والعزم"[58] أصل الإرادة متعلّق بالإنسان، لذلك فالجدار جماد لا حياة فيه ولا إرادة، فهي من باب المجاز وأصلها "استعارة لأن الإرادة على حقيقتها لا تصح على الجماد، والمعنى: يكاد أن ينقض أي: يقارب أن ينقض"[59]فالمُستعار هنا هو الإرادة التي هي من خصائص المخلوق بينما الجدار لا روح فيه ولا حياة.

فكلمة **المجاز** التي جاءت في تفسير البيضاوي أوسع دلالة وأرحب أفقا مما حدّدها البلاغيون فيما بعد، فهي عنده الطريق التي سلكها القرآن في التّعبير عن المراد، لا على المستوى الأسلوب فحسب، بل على مستوى المفردات أيضا؛ إنّه استخدم كلمة المجاز التي كانت مفتاح أبي عبيدة إلى فهم أساليب القرآن بالمفهوم نفسه الذي قصده أبو عبيدة، يبقى أنّ البيضاوي قدّم في تفسيره تحليلا –وتأويلا- واضحا دقيقا لما عرض له من مجازات القرآن الكريم المتعلّقة بصفات وأسماء الذّات الإلهية، في عبارة وصيغة وأسلوب ممتع ينبئ عن حسّ لغوي عال، وقد استطاع البيضاوي بهذا المنهج في شرح مجازات القرآن أن ينفذ إلى المراد منها.

وأخيرا نقول: إنها نفوس همها الوحيد أنها تقرض وجودها المعرفي، وذلك من خلال ما قدمته بين النص القرآني من خلال استقصاء الجوانب التطبيقية وإثراءها بما تراه مناسبا من خلال تقديم مقام الفهم دون التعالي عليه، بالإضافة إلى سمو الجانب المعرفي الغالب في

الرؤية العلمية المتّسمة بالإحاطة بجانب البيان بحكم أنه الأداة أو إجراء معرفي همه الوحيد اقتحام عالم النّص الموصل إلى تقصّي حقيقة مفادها أنّ النّص القرآني معجز ويحقّق إعجازه من خلال ما يثيره في القارئ المتلقّي من تقريب المعاني أو إلباسها ثوب المحسوس كي تتصدّر في عالم الفهم. فالواقع المعرفي والوجودي المبني على التّفكير والتدبّر وإعطاء الأشياء مقاديرها التي تستحقها هو الدافع والله من وراءه القصد والنية.

الهوامش:

[11] - بثينة الجلاّصي، النص والتأويل في الخطاب الأصولي (آليات القراءة وسلطة التّناص)، دار رؤية، تونس، ط1، 2014، ص337.

[3] - جمال حسين أمين، الدليل اللغوي بين المعتزلة والأشاعرة، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ط1، 2012، ص150.

[4] - صلاح الدين زرال، الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى حتى نهاية القرن الرابع الهجري، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، عام 2008، ص7.

[5] - أحمد مختار عمر، قاموس القرآن الكريم لغة القرآن "دراسة توثيقية فنية"، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ط2، عام 1997، ص195.

[6] - محمد رفعت أحمد زنجير، مباحث في البلاغة وإعجاز القرآن الكريم، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط1، عام 2007، ص23.

[7] - عبد العظيم إبراهيم محمّد المطعني، خصائص التّعبير القرآني وسماته البلاغية، ج1، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1992، ص245.

[8] - مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط9، 1983، ص192.

[9] - عبد العظيم إبراهيم محمّد المطعني، خصائص التّعبير القرآني وسماته البلاغية، ج1، ص178.

[10] - ابن المقفع، الأدب الصغير، ضمن آثار ابن المقفع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1989، ص283.

[11] - الجاحظ، الحيوان، ج4، تح عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط2، د س، ص90.

[12] - البلاقلاني، إعجاز القرآن، تح أحمد صقر، دار المعارف، مصر، د ط، د س، ص51.

[13] - القاضي عبد الجبّار الأسترآبادي، المغني في أبواب التّوحيد والعدل "إعجاز القرآن"، ج16، د ط، د س، ص199.

[14] - درويش الجندي، نظرية عبد القاهر في النظم، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، د ط، 1960، ص46.

[15] - نفسه، ص47.

[16] - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، د ط، د س، ص80.

[17] - عبد الكريم الخطيب، إعجاز القرآن في دراسات السّابقين دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها، دار الفكر العربي، ط1، 1984، ص300.

[18] - القاضي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تح محمود عبد القادر الأرناؤوط، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ج1، ص226.

[19] - سورة النساء، آية 82.

[20] - القاضي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج1، ص230.
[21] - سورة النساء، آية 166.
[22] - القاضي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج1، ص252.
[23] - سورة يونس، آية 38.
[24] - القاضي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج1، ص437.
[25] - عبد الكريم الخطيب، إعجاز القرآن في دراسات السّابقين، ص185.
[26] - سورة البقرة، آية 24.
[27] - القاضي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج1، ص44.
[28] - سورة الأنعام، آية 103.
[29] - القاضي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج1، ص316.
[30] - جمال حسين أمين، الدليل للغوي بين المعتزلة والأشاعرة، ص156.
[31] - سورة الأنفال، آية 14.
[32] - القاضي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج1، ص379.
[33] - أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ج1، مطبعة المجمع العلمي العراقي، د ط، عام 1983، ص295.
[34] - الدليل اللغوي بين المعتزلة والأشاعرة، ص161.
[35] - سورة البقرة، آية 186.
[36] - القاضي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج1، ص112.
[37] - محي الدين شخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي، تح محمد عبد القادر شاهين، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، عام 1999، ص455.
[38] - سورة البقرة، آية 210.
[39] - القاضي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج1، ص120.
[40] - أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ج1، ص349.
[41] - الدليل اللغوي بين المعتزلة والأشاعرة، ص162.
[42] - سورة آل عمران، آية 138.
[43] - سورة الرحمن، آية 1-4.
[44] - القاضي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج1، ص1032.
[45] - أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية، ج1، ص408.
[46] - إبراهيم محمد الجرمي، أثر الدلالة اللغوية في اختلاف المسلمين في أصول الدين، دار قتيبة، بيروت، لبنان، ط1، 2006، ص140.
[47] - بثينة الجلاّصي، النص والتأويل في الخطاب الأصولي، ص47.
[48] - البيضاوي، منهاج الوصول إلى علم الأصول، تح شعبان محمد إسماعيل، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص95.

[49] - أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية، ج3، ص193.
[50] - نفسه، الصفحة نفسها.
[51] - سورة البقرة، آية 216.
[52] - القاضي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج1، ص122.
[53] - سورة المائدة، آية 64.
[54] - علي حرب، التأويل والحقيقة قراءة تأويلية في الثقافة العربية، دار التنوير، بيروت، لبنان، ط2، 2007، ص39.
[55] - البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج1، ص277.
[56] - الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجاز القرآن، تح محمد عبد الغني حسن، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2012، ص133.
[57] - سورة الكهف، آية 77.
[58] - القاضي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج2 ، ص614.
[59] - الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجاز القرآن، ص216.